الفراشة

للكاتب الأمريكي: جيمس هانلي

توطئة: قد يخيل لمن تصافح عيناه عنوان هذه القصة بأنها وبطلها «كاسيدي» موجهة لجيل الناشئة... وليس الأمر كذلك... هي أقصوصة ترمز إلى تجسيد المفهوم الديني بمعناه الحق... بأنه يسر لا عسر... وهي تسلط كثيراً من الضوء على المنحى الخاطئ لرجالات الدين ممن يدينون بغير الإسلام... منهاج الحب والرحمة والتعاطف والتسامح... فهم يتجردون من متع الحياة... ثم تدفعهم غرائزهم كبشر إلى الانحراف... وما قصة القس «شواجارت» عن ذلك ببعيد «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه» فلك الحمد ربي أن جعلته لنا منهاجاً وعقيدة.

إنك لتكاد تلمس ذلك التقارب القدري بين حياة الفتى «كاسيدي» ويرقته، فهو يافع غض الإهاب على مدارج البلوغ، يحبو وهي خضراء توشك أن تتحول إلى فراشة.

والفتى داخل غرفته سجين لايبرحها... وهي داخل كرتون كذلك. أما الراهب فإنه يمثل أقسى آيات القمع والحرمان وهو يعاني من مركب نقص واضح يتجلى في ثورته من جراء صمت الصبي المتواصل... ويجسد سلوكه في نهاية القصة والمتمثل في سحق اليرقة رغبة في تقمص ذات الإجراء حيال الفتى... ما أقسى صمت الصمت حينما يستحيل بركاناً لا يبقي ولا يذر.

openkanal.com

obeikandl.com

الفراشة

للكاتب الأمريكي: جيمس هانلي

أحدث رداء الراهب «تيموثي» حفيفاً غريباً ـ نوعاً ـ وهو يذرع الممر جيئةً وذهاباً. وجهه كان بلون النجيع، وبشفتين مرتعشتين وذات قلقة مضطربة شرع يعبث دون وعي بأزرة ردائه. خطواته الحائرة المغضبة وهي تدق أرض المجاز كانت تشي بكثير من الانعكاسات النفسية بعضها خُلُوٌ من المعاني، وجلّها يطرح أدلةً على ما يعتمل في فكره وذاته من قلق وفوضى وثورة مكبوتةٍ عارمة مشتعلةٍ تكاد تضيء النار بين جوانحه. ولم يكن الرائي بحاجة إلى جهد مضاعف لاستقراء ذلك وسبر غوره! كان يتمتم بين الفينة والفينة بعبارات غاضبةٍ فيما كانت نظراته الحادة ـ في تجاويف ذلك الخضم الحسي المتأجج ـ تتسلل إلى باب خشبي ثابت صلب يفضي إلى إحدى غرف ذلك الممر المعتم العتيق. لم يكن لأفكاره نظام أو هيئة... بدا مندهشاً حد الذهول ولم يكن ليجد تأويلاً منطقياً لما قام به الفتى الذي كلما ذكر اسمه «كاسيدي» اندفع الدم إلى جبهته في فورة عمياء راعشة. وكان صمت الفتى وسكونه العميق هو ما يلهب فؤاده بالغضب فيمور في تجاويف أوردته كالأسيد. ـ تباً لتلك السكينة والهدوء!

ـ قال الراهب لنفسه والكمد لما يزل يرفعه ويخفضه على أتون نار ليس تخمد. لابد وأن الفتى خُلُوٌ من الضمير! ـ قال لنفسه ثانيةً! وتوقف فجأة فألقى على الباب الرهيب نظرة... أعمل الفكر بعدها فتبدت له الغرفة التي يفضي إليها وقد غرقت في ظلام دامس لا يلبث أن يغمرها، وأرهف السمع فما تسللت إلى أذنيه أدنى حركة... لربما خلد الفتى إلى نوم عميق!... وربما كان لا يزال مستيقظاً! من يدري! قد يكون الآن جاثماً خلف الباب يستمع... متلذذاً بالمنى...

ثملاً بأمنيات الانعتاق من شرك سجنه... كيما يغادر غرفته فيحضن الدنيا بكل.. ما فيها من سعادة وألق ونشوةٍ لفتى يافع مثله... ياللخيال الغرّ الممعن في التفاؤل! وندت عن الراهب ضحكة ساخرة قصيرة وهو يستعرض تلك الآمال العراض تجوب فكر الصبي فلا تبرح مراكبها شطآن فكره. وانحسر شبح الابتسامة عن شفتيه وهو يؤكد لنفسه بأن الفتى لن يبرح غرفته حتى يقدم تفسيراً منطقياً لعدم حضوره القداس؛ ولم يكن ما أرّق الراهب خرقهُ للأوامر التي كلف بها وشقه لعصا الطاعة... ما ألهب غضبه كان ذاك الصمت الطويل... ذاك السكون الرهيب يواجهه به كلما طالبه بتقديم تفسير منطقي يبرر ما أقدم عليه. لكن الصغير لم يكن يملك سوى الصمت والإطراق والإبحار في غياهب السكون وتلك اللامبالاة القاتلة! ولم يكن كل ذلك وليد براءة كلا لم يكن ـ قال الراهب في نفسه ـ إذ إن تصرفاته وردة فعله كانت تشي بعكس ذلك تماماً، ذاك الصبي... كان عنيداً كباب فولاذي منيع! وأعمل الراهب فكره: كيف لي أن أعالجه فأفتحه؟

واستأنف ذرع الممر غادياً... رائحاً لدقائق خمس ثم توقف أمام الباب ثانية قبل أن يطرقه بشدة منادياً أن:

ـ أأنت هناك يا «كاسيدي»؟

وما أتاه جواب: تباً لك! قال ثانيةً.

وفكر... ربما كان يغطّ الآن في نوم عميق ـ على أنه ارتأى أنه ليس من حق الفتى أن ينام، فأخرج مفتاحاً من جيبه أداره في القفل قبل أن يفتح الباب فيلج إلى غرفة الغلام... وبهدوء... عاد الباب خلفه إلى وضعية الإقفال!

ورفع الفتى الذي كان جالساً على حافة السرير رأسه إلى الراهب «تيموثي» إلا أن معنى خفيفاً تحذيرياً في عين الأخير جعله يطرق على استحياء... ونظره يزحف على أرضية الغرفة في انتظار وقوع المحظور!

ـ حسناً «كاسيدي» ـ قال الراهب «تيموثي» ـ هل عدت إلى صوابك وثاب رشدك إليك أم ليس بعد؟

وانتفخت أوداجه وبرزت أوردة عنقه حتى حاكت انتفاخ الثعابين المستعرة بلهيب الرمضاء... كان يستمطر إجابة من الغلام... أي إجابة أو استجابة تكسر طوق الحاجز النفسي الذي يوشك أن يخنق أنفاسه.

ـ أجبني! قلت لك! ـ صرخ به ـ أجبني أيها الشرير الوضيع... أيها الـ... وخانته الكلمات! ما نبس عقب ذلك ببنت شفة! طفق يحدج المتهم بنظرات ثاقبة وسحب ـ بعد وهلة ـ كرسياً فجلس قبالة الغلام.

ـ أكرر ما قلته لك... لم تقدم تفسيراً يبرر ما أقدمت عليه من تصرف طائش ـ انظر إلي... اسمع أيهذا الصغير الـ... تخلفت يوم أمس عن حضور القداس، أنت وذلك الوغد المسمى «بايرن» من سمح لك بذلك؟ أين ذهبتما ولماذا؟ هلا أجبت؟ لماذا لم تطلب إذناً بذلك رغم أني لم أكن لأسمح لك؟ ما بالك وصاحبك السيئ؟ لماذا تختلفان عن الآخرين؟ أجبني ألم تسمع ما قلته لك! ستظل رهن الحبس هنا حتى تقدم تفسيراً يبرر ما أقدمت عليه... أصغ إلي... صمتك هذا... ضع حداً له وإلا... لن أصبر على ذلك... أتسمعني...

على أني سأحل عقدة لسانك أتسمعني قلت لك؟! للمرة الأخيرة أقول لك: لماذا تخلفت عن حضور القداس؟ ورفع «كاسيدي» ذو الخمسة عشر ربيعاً رأسه صوب الراهب تحركت شفتاه على أنه ما نبس بحرف. وعندما صفعه رجل الدين قال ببطء: لقد أخبرتك بالأمس أيها الراهب (تيموثي).

ـ فأنت مصمم على المضي قدماً فيما اعتزمت! حسناً. سوف تظل هنا إذاً ـ سنأتيك بالطعام على أنك لن تعبر هذا الباب حتى تفتح فاك هذا! وأمسك بالفتى من منكبيه فجأة فهزه بعنف قبل أن يصيح به:

ليس من حقك أن تفعل ذلك... سوف تعلل ما أقدمت عليه من عمل مشين وسوف تعتذر عما بدر منك أتفهم؟ ليس من اللائق أن تغيب في غياهب الصمت هكذا أتسمعني؟!

قال ذلك ثم تعالى وقع خطاه مغادراً المكان.

وابتسم «كاسيدي» وهو يستمع إلى صوت غلق الباب والمفتاح يدور في ثقبه جارحاً أديم السكون.

وأوى «كاسيدي» إلى فراشه وعندما أفاق كان عسجد الشمس يمور في الغرفة بضياء ساحر أخّاذ... حبّب إلى السجين الصغير عذوبة الحرية في الخارج... في اقتحام أسوار زنزانته الصغيرة والانطلاق إلى ذلك العالم النابض بالنشوة والمرح والألق... اشتاق إلى الخروج شوق العنادل للشدو، إلى التحرر من تلك الخطى الرتيبة تتجه صوب غرفته... إلى الهرب من ذلك المحيا المكفهر تعكس صفحته آيات الغضب والهزيمة وقال لنفسه بأنه لم يكن ينوي الإضرار بأحد... بأنه ما تأبط شراً لقد اتجه إلى الأسيجة والأدغال مع «بيرن» فأذهلهما ما شاهداه من حياة فطرية غريبة واستغرقهما ذلك فغابا في لجج من الانسجام والتعمق فيه إلى حد لم يسمعا معه رنين الجرس. وهاهو الآن يرسف في أغلال سجن انفرادي لأنه لم يستطع أن يقدم تبريراً يوضح ما حدث: ـ لكني قد شرحت له الأمر! قد فعلت.

وأخرج من جيبه كرتوناً صغيراً ثُقبت جوانبه فرفع غطاءه وما إن فعل حتى تسللت منه يرقةَ فراشة تسلقت إصبعه. وشرع «كاسيدي» يرمق تحركاتها الحذرة المتزنة وخفض رأسه فحدق فيها أكثر؛ يالروعة الاخضرار! همس لنفسه ـ ستغدو فراشةً جميلةً بعد يوم واحد. ما أبدع صنع الخالق! ـ وبرقّةٍ مرر إصبعه عليها... ولاحت الشمس خلف أستار السحاب فسكبت صبابة التبر في أرجاء الغرفة وسرعان ما غرقت اليرقة في شلال من الضياء.

ـ أظن أني سأدعوك «زفير»! قال «كاسيدي» مخاطباً الحشرة قبل أن يبتسم بنشوة اكتساب إلفٍ جديد.

كان يحتفظ بها في علبة الورق المقوى الصغيرة تلك ليومين... فتغمر السعادة أعطاف روحه كلما تذكر أنها هناك... قريبة منه... أنْسته قسوة الراهب «تيموثي» وأشياء مؤلمة كثيرة... في قرارة نفسه كان ثمة اقتناع باقتران السعادة بوجودها معه... تلك اليرقة الخضراء، ولو أنها كانت تفهم لغة البشر لشرح لها لماذا يصرّ الراهب «تيموثي» على إبقائه سجيناً... رهن الاعتقال... لربما فهمت تلك الخضراء اللزجة ما يعانيه فأشفقت عليه... ربما كانت ترمقه الآن بنظرات عطف وتفهّم لما لاقاه وما يعاني منه! من يدري! قال لنفسه.

ـ أوهـ! وندت عنه آهة خوف فيما سقطت العلبة من يده وهو يستمع إلى وقع خطوات قادمة على أرضية الممر.

بعد وهلةٍ فتح الباب وولج الراهب «تيموثي» عبره إلى داخل الغرفة:

حسناً «كاسيدي»؟ ـ قال: أترى ثاب إليك رشدك؟ على أن الفتى تصنع الغفلة... ظهره كان صوبه فيما سقط شعاع الشمس على وجهه وهو يضع اليرقة برفق على طحيلبٍ بقاع «الكرتون» وربت على ظهرها للمرة الأخيرة قبل أن يحكم الغطاء فوقها.

ـ «كاسيدي» ـ صرخ الراهب بصوتٍ شادى هزيم الرعد ـ ماذا تخبئ؟.

ـ ماذا تخبئ؟.

ـ «لا شيء... أقصد... أيها الراهب إنها...».

ـ ماذا... فأنت إذاً تهدر وقتك على هذا النسق؟ ألا تخجل؟ أفلا تشعر بالذنب؟!

ـ الذنب؟... إنها لا تعدو كونها يرقة صغيرة... أيها الراهب «تيموثي». ولئن كان صمت الفتى سمّاً فإن ماكشف الصبي النقاب عنه كان أسوأ بمراحل وما تمالك نفسه! شدّ بعنف أذن الفتى:

ـ أهذا كل ما بوسعك عمله للتكفير عما قمت به ـ لتطهير وإراحة ضميرك مما علق به من شوائب... أهذا كل مابوسعك تقديمه لتبرير ما أقدمت عليه أيها الآبق الأثيم؟ أعطني إياها في الحال.

ـ لكنها مجرد يرقةٍ صغيرة خضراء ستغدو فراشة في القريب العاجل... إنها خضراء صغيرة وهي تتسلق إصبعي كما لو كانت تعرفني... أرجوك أيها الراهب... أنا... أثناء فترة حبسي الانفرادي هنا كانت لي نعم الرفيق المواسي... لقد... سكبت في ذاتي ألواناً من السعادة والألفة... لقد...

ـ كيف تواتيك الجرأة؟

وخطف الكرتون منه بعنف فألقى باليرقة على الأرض وشرعت ـ الفقيرة إلى الله بعد أن لامست البرودة المحيطة بها ـ في التمدد والزحف ببطء:

ـ ليس من حقك التغيب عن القداس... كما وأنه ليس لك أن تستشعر سعادة من أي نوع! أتسمعني!

وبحركة سريعة من قدمه الثقيلة داس اليرقة بعنف فسحقها بكل الحقد الكامن في ذاته!

ورفع «كاسيدي» إلى الراهب نظراتٍ هلعة مذعورة قبل أن ينخرط في بكاء عميق!